

من نحن في زمن التحولات الكبرى؟

سؤال الهوية الحضارية :السياق المغربي نموذجا

د مصطفى المسعودي



نشر إلكترونيا في ذو القعدة، ١٤٣٣/أكتوبر، ٢٠١٢.

الإخراج الفني: فوزية الألمعي
تصميم الغلاف: إدريس يحي

محتـــويات الكتـــــاب

من نحن في زمن التحولات الكبرى؟

(سؤال الهوية الحضارية :السياق المغربي نموذجا)

تقديم:

كثيرة وهائلة هي التحولات التي تهزّ العالم اليوم من أقصاه لأقصاه وتُعيد ترتيب ملامحه بشكل غائم في كثير من التمظهرات التي تتداخل أبعادها السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وتتجه صوْب مآل يصعب التكهن بماهيته ونتائجه، حتما إن الزمن البشري نقيض السكون إذ السكون في زمن الإنسان معادل للموت، إلا أن التحولات التي باتت تغير ملامح العالم منذ مطلع القرن الواحد والعشرين أخذت طابعا سريعا وبدَت بمثابة الطفرات الكبرى التي تنقل الأشياء من حال لآخر، من هنا يبدو أن حديث العالم المستقبلي **alvin toffler** منذ زمن مبكر عن "موجة الحضارة الثالثة" لم يكن ضربا من الخيال.. العالم اليوم يتغير إن لم نقل إنه قد تغير بالفعل في حركته السياسية والاقتصادية والبيئية و بشكل هائل.. نحن في زمن العولمة اذن، كما يقال، وربما نحن في زمن النهايات كما قال البعض الآخر.. لكن الأهم من كل ذلك القيل أننا في زمن يفرض أن نفهم زمانه أولا، وأن نكون في مستواه حتى لا نكون ضحايا على قارعة سيرورته التي لا تنتظر أحدا، من هنا تأتي الضرورة القصوى لأن نشتغل نحن اليوم كأمة عربة اسلامية أولا ثم

كمغاربة ضمن منطق الكتلة الحضارية التي تبحث لنفسها عن مكان بين المناكب المزدحمة، وأكيد أن مبتدأ الدخول إلى زمن التحولات تفرض أولا طرح كل الأسئلة الكبرى بجرأة وعمق بعيدا عن منطق الاستكانة لرتابة الجاهز، وفتح الملفات التي قد تبدو مسلمات في الذاكرة سواء تعلق الأمر بالذات أو الموضوع، وفي هذا السياق الحاد يفرض السؤال نفسه: من نحن إذن؟ وكيف نحن..؟ ثم ماذا تعني "نحن"..؟ بمعنى طرح سؤال الهوية في صيغتها الجمعية والحضارية، ولأن طبيعة الأشياء لا تقبل الفراغ فإن السؤال مطروح في الطريق تلوكه الألسنة بهذا الشكل أو ذاك وبهذه الغاية أو تلك شئنا نحن أم أبينا.

حول تنامي الوعي بالهوية:

تثار مسألة الهوية اليوم، عبر العديد من بلدان العالم، باعتبارها موضوع اللحظة الحضارية الراهنة، و تأخذ القضية تجليات شتى و أبعادا مختلفة، سواء داخل ما يسمى ببلدان العالم الثالث أو في العالم الغربي نفسه.

و إذا كانت نهاية القرن التاسع عشر قد أسفرت عن هيمنة الخطاب الايديولوجي الغربي و امتداد الوعي الاشتراكي بشكل واسع داخل هذه الهيمنة، فإن نهاية القرن العشرين كانت حاسمة في ظهور هذا الوعي الآتي من مركز حضاري واحد، هو المركز الغربي، لينفتح المجال واسعا أمام بروز وعي آخر يتجاوز القشرة الايديولوجية، ويمتد بعيدا في الجذور المؤسسة للتكتلات البشرية، و يتجاوز المركز الغربي نفسه، و ذلك هو " الوعي بالهوية ".

هكذا يمكن ان نقرأ ملامح البحث عن الهوية و العودة إليها في العديد من مظاهر التوتر المنتشرة في هذا الجزء من الكرة الأرضية أو ذاك؛ فالحملات

العنصرية المتنامية التي يتعرض لها المواطن المسلم في الغرب هي في عمقها حملات ضد هوية تبحث عن ذاتها و يراد لها أن تباد. و العدوان الذي تمارسه " إسرائيل " ضد أبناء فلسطين السليبة و ضد المقدسات الإسلامية هي حرب ضد هوية شعوب بأكملها أيضا. و حركة الجمهوريات الإسلامية للتحرر من السيطرة السوفياتية – سابقا – كانت حركة في اتجاه البحث عن استرداد الهوية الإسلامية التي تم قمعها طويلا. و صمود بلاد البوسنة ضد الإبادة الصربية كان صمودا للهوية أيضا. والعدوان الإجرامي ضد المسلمين في بورما اليوم هو عدوان ضد أصول تقاوم الإبادة أيضا، و نفس الشيء يقال عن كل الأقليات الإسلامية في العالم والتي أصبحت تحن إلى جذورها، و تسعى جاهدة للتحرر من ربقة الطوق الاستعماري و التخلص من خطر الذوبان والتلاشي. و في هذا السياق يمكن اعتبار تصاعد دينامية الصحوة الإسلامية أكبر صرخة للعودة إلى الذات عودة صارت تقلق الغرب منذ زمان و تجعله وجلا على نموذج حضاري لم يسعد البشرية.

وكثيرا ما يترجم القلق إلى مواجهة إعلامية أو غير إعلامية للهوية الإسلامية و قيمتها الرمزية، و طبعا لا تخص هذه الحركة الدافعة في اتجاه الهوية بلدان العالم الإسلامي بمفردها، بل إنها تلامس العديد من البلدان الأخرى ضمن أنساق حضارية مغايرة؛ فلازالت معظم الصراعات التي تدور في إفريقيا تستند إلى جذور إثنية عرقية، و لازال سؤال الهوية الذي لعب دورا حاسما في إنهاء معسكر الاتحاد السوفياتي يمارس الفعل نفسه في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تعتمل كثير من الصراعات و الأحقاد العرقية و الإثنية التي لا تأمن معها الدولة العظمى الانتهاء إلى مصير التفكك نفسه، إن بصيغة أو بأخرى.

و في هذا الصدد أيضا، لا يمكـن أن نفهـم تلـك الموجـة الواسـعة مـن العودة إلى الدين في الغرب، إلا باعتبارها مظهرا من مظاهر البحث عن الهويـة في صيغتها الفردية الفلسفية عنـد الإنسـان الغـربي الذي كان و لازال يعـاني كثيرا من جراء خياراته المادية و الإباحية التي حاولـت أن تقطـع صـلة هـذا الإنسان بكل ما هو علوي و سام، و أن تحوله إلى قطعة تافهة من الرغبـات و الغرائز، ثم كانت النتيجة ما نلاحظه اليوم.

لا شك أن ثمة العديد من الشروط و الحيثيات الحضـارية و التاريخيـة تتحكم في سيرورة موضوع الهوية و تحولاته عند المجتمعات البشرـية، و هي التي تفسر امتداده، ذلك أنـه قـد يكـون بالفـعل" بمثابـة رد فعـل سـياسي اختياري من قبل المجموعة البشرية، صغيرة كانت أم كبيرة، حينما تشعر أنها مهددة بالانقراض و التبعية[1] " كما يقول **Anarrdaw . P . Guruge** .

و بالمقابل، حسب الباحث نفسـه، لا تحتـاج المجموعـة البشرـية الـتي تشعر بالقدر الكافي من الأمـن، في هـذا المجـال، و الـتي لا تكـون سـيادتها و استقلالها في خطر، لتعزيز توحدها الثقافي و لا للتأكيد على تمايزها واختلافها. فهذا الشعور بالقلق على الهوية يزداد حـدة كلمـا لامسـت المجموعـة مظـاهر الاختـراق الخارجي لأنساقها القيمية و معايرها المتميزة و هـذا هـو الذي يـبرر لماذا " كانت المطالبة بالهوية في العصرـ الـراهن أكـثر حـدة في حالـة التثـاقف القومي أو المحلي، أو حـين الهجـرة الجماعيـة، و أيضـــا حينمـا تبتـنى قـيم و خصائص ثقافية أجنبية من قبل فئـة داخـل الجماعـة نفسـها[2] "بهـذا المعـنى يكون بحث التكتلات البشرية في حالات الأزمة عن هويتها، نوعا من العودة

[1] --A - P . Guruge : Identité culturelle et développement ,traduction et modernité - in ifda dossier - 68 nov. / dec 88 P : 53 .
[2] - Ibid P : 54



إلى الذات سعيا للانفلات من خطر الانقراض أمام التحـديات الخارجيـة الـتي قد تهزها بعنف.

وهذا القانون هو الذي سرى و لازال يسري، بشكل واضح، على المجتمع الإسلامي و تجمعاته البشرية حيث تكون العودة إلى الذات نوعا من الدورات التجديدية التي تنبثق من قلب الأمة بشكل تلقائي في صيغة علماء مصلحين أو دعاة مجددين أو حركات تغيير ناهضة، مصداقا لقول الرسول الأكرم (ص) بخصوص موضوع التجديد في أمر الدين. و يكون هذا الانبعاث حركة تلقائية كلما وصلت الأمة حالة معينة من السقوط و الانهيار، تستدعي تدخلا إصلاحيا لتقويم المسار و تسديده فإذا شعلة الهوية تتـأجج في أعماق هذه الأمة من جديد، و يبرز الدين عاملا مركزيا في هذه الحركة التاريخية إضافة إلى مكونات أخرى كاللغة و التراث.. " لاعتبار أن الذي يلحم الجماعات في النضال من أجل استقلالها السياسي والاقتصادي و الثقافي (...) إنما هي منظومة كاملة من المقومات الثقافية، ابتداء من اللغة.. وانتهاء بالدين[٣]. ".

و إن حجم العنف، في صيغتيه المادية و الرمزية، الذي مارسه الغرب، ولا زال يمارسه على الشعوب المستضعفة، يمثل بالفعل عاملا مركزيا لتنامي الشعور بضياع الهوية عند هذه الشعوب، الأمر الذي يجعلها تندفع بقوة للبحث عن الذات و استرداد الملامح المندثرة، هذا بالإضافة إلى تعاظم الشعور بإفلاس النموذج الحضاري الغربي و فشله الذريع في إسعاد الإنسان على وجه الأرض. كل ذلك تساكن و لازال يتساكن، عند الشعوب الإسلامية خاصة، مع إحساس حزين بنخوة الانتماء إلى تاريخ عظيم، و دين سماوي أعظم،

[٣] -المرجع السابق . ص : ٥٤.



يستبطن إمكانات هائلة للنهوض بالأمة من جديد لأداء أدوار منتظرة في مسرح الحياة.

إلا أن جميع هذه العوامل الدافعة نحو العودة إلى الذات هي مؤثرات وحوافز خارجية إن صح التعبير، تواجدت بشكل مواز لحركة داخلية كبيرة، اعتملت في أعماق الأمة؛ إذ لم يكن لتنامي الوعي بالهوية أن يجد طريقه إلى أرض الواقع لولا تلك الحركة العجيبة التي سرت في جسد البلاد العربية فجأة بحدوث الصدمة الاستعمارية، و قادتها أفواج من العلماء و المجاهدين و الدعاة والمفكرين و الحركات الإصلاحية.. و بذلك صارت هذه الجموع تقود الأمة نحو أصولها و تشدها إليها بحرص في ليل حضاري بهيم، تكاثرت فيه السبل الأيديولوجية، و تنوعت وسائل الغزو المتجهة صوب هدف واحد، هو هوية الأمة الحضارية و كينونتها المتميزة.

هكذا كانت الهوية السؤال الأول الذي احتضنه جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و رشيد رضا و الكواكبي و جماعة الإخوان المسلمين و علماء الأزهر.. و العديد من العلماء الآخرين في بلاد المشرق العربي، و هو نفس السؤال الذي ظل ملتهبا في المغرب، و عانقه عبد الكريم الخطابي و موحا و حمو الزياني و ترددت أصداؤه بقوة عند زعماء الإصلاح السلفي، ثم عند مؤسسي الحركة الوطنية. فهؤلاء جميعا، هنا و هناك، كانوا يستشعرون في كل حركاتهم التحررية موضوع الهوية باعتباره المحور الأساس. و هكذا فإن " الهوية بمعناها القومي، كما ألهمت الكفاح الوطني بأوربا خلال القرن السادس عشر (نراها) تلهم حروب التحرير في كل من آسيا و إفريقيا خلال القرن

العشرين[٤] ". و كان العالم الإسلامي في كل ذلك يبدو أكثر قابلية للاستثارة من قبل هذا الموضوع الحيوي.

و إذا كانت الهوية قد لعبت هذا الدور المركزي في الصراع ضد الاستعمار الأجنبي، فإنها كانت ولازالت مهيأة لتلعب الدور نفسه من أجل تصفية العديد من الآثار السلبية التي خلفها الاستعمار، و التي تمثل بتعبير **A . P . Guruge** " تهديدا حقيقيا وكبيرا للسيادة و الاستقلال الاجتماعي و الاقتصادي في دول الجنوب[٥] " . و من مظاهر ذلك استمرار الاستعمار الاقتصادي القائم على الاستغلال المنظم للثروات المحلية، و الغزو الإعلامي الهائل القائم على اللهو و مناقضة القيم الثقافية المحلية هذا بالإضافة إلى حالة من نزيف الكفاءات (**L ' hémorragie des compétence**) التي تدفع بالبلدان الفقيرة إلى التخلي عن نخبها والتي تطلب تكوينها مجهودات جبارة[٦]. هذا دون الحديث بطبيعة الحال عن التدخل الأجنبي السافر في مختلف نواحي الحياة السياسية و غيرها.

جميع هذه العوامل، وغيرها تجعل موضوع الهوية بتعبير **C . L . Strauss** [٧] " ينفتح على العديد من المنعطفات، باعتباره يهم بشكل إجرائي كل الأنساق و الأنظمة و كل المجتمعات التي يشتغل عليها الأنتربولوجيون خاصة." و لهذا ليس غريبا إذا قيل " إن موضوع الهوية سيكون معضلة القرن الكبرى[٨] ".كما يؤكد الباحث نفسه.

4- Le Thanh Khoi : culture ,créativité , et développement P :32.–

5 - -A . P . Guruge : identité culturelle et développement . P : 54

6 -- Ibid . P : 54 - 55

7 -- C . L . Strauss : L ‘ identité . Paris 87 . – P : 9

٨ - نفسه . ص : ٩

الفصل الأول:
الهوية الحضارية، التعريف والأبعاد

في تعريف الهوية

" الهوية " في اللغة العربية مصدر صناعي، يتكون من ضمير الغائب المفرد ' هو ' المعرف ب ' ال ' و من اللاحقة المتمثلة في الياء المشددة إلى جانب ثاء التأنيث.

و يذهب معظم الباحثين إلى أن اسم " الهوية " ليس عربيا و إنما كلمة مولدة اشتقها المترجمون القدامى من ال " هو " أي حرف الرباط.. الذي يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره ، وهو حرف " هو " في قولهم: زيد هو حيوان أو إنسان"، و لينقلوا، بالتالي، بواسطتها، و كما يقول الفرابي، ((المعنى الذي تؤديه كلمة ' هست ' بالفارسية وكلمة 'استين' باليونانية، أي فعل الكينونة في اللغات الهندو – أوربية الذي يربط بين الموضوع والمحمول، ثم عدلوا عنها و وضعوا كلمة 'الموجود ' مكان ال ' هو' و 'الوجود' مكان 'الهوية '))[9] و إن غياب مفهوم الهوية بهذا المعنى الفلسفي تعضده المعاجم العربية القديمة حيث لا نقف في " لسان العرب " على سبيل التمثيل تخريجا للكلمة يؤرخ لامتداده في الذاكرة العربية القديمة.

---

[9] – ((الهوية من منظور فلسفي إسلامي . . .)) مصطفى الحاج علي – ضمن " المنطلق ع . ٩٩ ص : ٢١

و بالمقابل نجد ذكر المفهوم عند الفلاسفة العرب و المسلمين القدامى من أمثال ابن رشد في " تفسير ما بعد الطبيعة " و ابن سينا و الفارابي، كما يعرفها الجرجاني باعتبارها ((الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق)) ١٠.

و تلتقي تعريفات الفلاسفة المسلمين مع ما نجده عند فلاسفة اليونان القدامى خاصة أرسطو الذي يعرف الهوية باعتبارها: ((وحدة الكائن، أو هي وحدة لتعدد الكائنات. أو في النهاية هي وحدة الكائن الواحد المنظور إليه باعتباره متعددا؛ إذ حينما نقول – على سبيل المثال – إن الشيء الواحد متطابق في ذاته، إنما ننظر إليه في نفس الآن كما لو كان شيئين ١١).

و في نفس المنحنى يذهب كثير من فلاسفة ' الأنوار ' بأوربا حيث نجد عند ' فولتير ' التحديد التالي لمفهوم " الهوية ": ((هذا المصطلح العلمي لا يعني سوى الشيء نفسه، و يمكن ترجمته إلى اللغة الفرنسية بمعنى التساوي))١٢.

و لا يخرج " هيجل " وغيره من فلاسفة الغرب عن هذا الجذر التعريفي المؤسس لمفهوم " الهوية " و الذي نقلت المعاجم و الموسوعات الفلسفية المعاصرة صياغته بنفس المعنى؛ حيث دأبت على اعتبار " الهوية " ((مقولة تعبر عن تساوي و تماثل موضوع أو ظاهرة ما مع ذاته، أو تساوي موضوعات عديدة. فالموضوعان أ و ب يكونان متطابقين من حيث الهوية إذا، وفقط إذا،كانت كل الصفات (و العلاقات) التي تميز "أ" مميزة أيضا للموضوع "ب"، و العكس بالعكس (قانون لايبنتز). و لكن لما كان الواقع المادي يعتريه تغير

١٠ – ((كتاب التعريفات)) الشريف علي بن موسى الجرجاني ص : ٢٥٧

11– - Dictionnaire de philosoph ie . Jacqueline Russ - P . 132

12 – Dictionnaire de philosophie . P . 132



مستمر، فإنه لا يمكن أن تكون هناك موضوعات تنطبق هويتها بصورة مطلقة على ذاتها، حتى في صفاتها الجوهرية و الأساسية)) ١٣.

و الملاحظ أن هذا الجذر الفلسفي المحدد لمفهوم " الهوية " هو الذي طوره لفكر الإسلامي المعاصر، و تشعبت مجالاته بتشعب المجالات الفلسفية و الاجتماعية و الحضارية التي يشتغل عليها هذا الفكر، ليستقر المفهوم في علاقته بالمجتمع العربي الإسلامي على اعتبار أن " الهوية الحضارية لأمة من الأمم هي القدر الثابت، والجوهري، و المشترك من السمات و القسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات و التي تجعل للشخصية القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات القومية الأخرى "١٤ حسب تعبير د. محمد عمارة.

أبعاد الهوية الحضارية:

يتباين الفهم في تحديد عناصر الهوية الحضارية و ترتيبها تبعا لاختلاف المرجعيات الايديولوجية، إلا أن هذه العناصر تظل متمحورة، في الغالب الأعم حول مجمل " أدوات و أشكال التعبير التي تربط بين أعضاء الجماعة، و حول تصوراتهم المشتركة للإنسان و العالم والمجتمع، و حول خيالهم الاجتماعي كما يتمثل في الحكايات و الأمثال و الموسيقى و الأغاني و القصص الشعبي و الفن، و حول منظومة السلوك و الأخلاق العملية. و هذه العناصر تتمحور كلها حول عنصرين أساسيين هما اللغة و الدين كما في معظم الدول العربية " ١٥.

---

١٣ – ((الموسوعة الفلسفية . .)) ترجمة سمير كرم . ص : ٥٦٤.

١٤ – ((الهوية الحضارية)) ضمن " رسالة الجهاد " ع . ٦٥ ص ١٠٦ .

١٥ – ((مدارات الحداثة)) محمد سبيلا – ص : ١١٥



و إذا كانت الهوية الحضارية، بهذا المعنى، لا تتحقق بشكل طبيعي إلا من خلال " قرون من التساكن، و القيم المشتركة، و التداخل اللغوي، و التوحد في الحياة الثقافية و السياسية ١٦ "، فإن كل هذه الشروط تحضر في قلب الكيان الحضاري المغربي راهنا، و من خلالها تبرز معالم هويته الثقافية و الحضارية المتميزة بشكل واضح لا يقبل جدلا أو تشكيكا، و قد ساهم الامتداد التاريخي الكبير في ترسيخ تلك الملامح و تكريس أبعادها المتعددة.

فبدءا بالدين و اللغة، و مرورا بالبيئة والتراث و التاريخ المشترك يظل المغرب واحدا من البلدان العربية الإسلامية التي استكملت أسس هويتها الحضارية بشكل واضح المعالم، و أصبحت هذه المكونات هي السمات المميزة لأبناء الوطن الواحد و القواسم المشتركة بينهم؛ يتحركون في إطارها، و يضحون من أجلها، و ينظرون إلى المستقبل من خلالها، و لا يمكن أن يُتصور وجود حقيقي للمغرب خارج هذه المقومات المؤسسة لكيانه و هويته.

البعد الإسلامي:

كان الإسلام بالفعل ميلادا جديدا للإنسان المغربي، تخلق في رحمه، ثم اطمأن إليه و اتخذه إطارا حضاريا جديدا، استمد من تعاليمه هوية المجتمع و كينونته الجديدة، و بذلك أصبحت، على امتداد التاريخ " السلطة الدينية الإسلامية هي التي تضبط ماهية المجتمع المغربي في عصوره الإسلامية بقواعد نظامه الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي إلى حد كبير، فعلى أساس الدين الإسلامي أدرك المغرب ذاته و به حقق المغايرة، و يعني هذا في النهاية أن الدين

[16] – Le Thanh – Khoi . culture ,créativité et développement P / 36



الإسلامي في المغرب الأقصى أصل اجتماعي و بنية داخلية عميقة الجذور و من صميم الهوية المحلية و الشمولية "١٧.

و تبعا لذلك أصبح الدين الإسلامي الإطار العام لحركة المجتمع و الأفراد على حد سواء؛ إليه يهرع الناس في حالات الشدة، و إليه يحتكمون في أوقات الاختلاف، يستمدون منه عوامل الوحدة و مشاعر الحماس لمواجهة الأطماع الأجنبية، و لهذا لم يجد المغاربة ملجأ آخر في ردهم على الاستعمار سوى الإسلام و مفاهيمه الجهادية، و لم يجدوا الرد على مشاريع هذا الاستعمار التخريبية، و على رأسها مشروع " الظهير البربري " إلا في المناداة بالوحدة على أساس الإسلام أيضا، بل إن دهاقنة الاستعمار أنفسهم تحاشوا كثيرا المسّ المباشر بمشاعر المسلمين الدينية لأنهم كانوا يعلمون مدى تمكن هذا الدين في النفوس.

و لكن الملاحظ أن هذا الوازع الديني المتوارث عند المغاربة لم يسلم هو الآخر من جو الانحطاط العام الذي دخلته الأمة خلال " عصر ما بعد الموحدين "؛ بحيث تحول تمثل الناس لمفاهيم الإسلام و قيمه إلى حالة من التقليد المتكاسل الذي يشوبه الكثير من السطحية و الجهل و التخاذل، و كان ذلك سببا مركزيا في انهيار الصرح الحضاري بأكمله.

البعد اللغوي:

تلعب اللغة أيضا دورا حاسما في صياغة هوية الشعوب و الأمم؛ و إذا كان الإسلام قد جاء ليؤطر جميع الجوانب المتعلقة بالإنسان و ليجيب عن

[١٧] - " مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري . . " إعداد ذ . هاشم العلوي القاسمي الجزء الأول : ص : ٤٩ .



أسئلته حول الكون و الذات و الحياة و المصير.. فإن اللغة وسيلة للتواصل و التخاطب داخل المجموعة البشرية، و هنا تكمن أهميتها.

و معلوم أن القرآن الكريم بقدر تكريمه للغة العربية و الارتقاء بها إلى مستوى اللغة التي خصها الله تعالى بحمل كلامه الى الناس، أعلى من شأن باقي اللغات وجعل اختلاف الألوان و الألسنة آيات دالة على وجود الخالق و عظمته؛ فقال سبحانه " و من آياته اختلاف ألوانكم و ألسنتكم "، و قال عز من قائل: " و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . ".

لقد حرص الإسلام، في نهوضه لتحرير الإنسان من جور الأديان إلى عدله، على احترام الأنساق الحضارية الإنسانية التي لامسها في مختلف نواحي العالم و ضواحيه. و اختلفت الفتوحات الإسلامية في ذلك اختلافا جذريا عن المنهج التخريبي الذي اتبعه الاستعمار الغربي في حملاته التوسيعية حيث كان يميل إلى تحطيم هاتيك الأنساق و استبدالها بأخرى هجينة، في حين عمد الإسلام في حركة الفتح التاريخية إلى مرونة بالغة، فا ستقطب أنساقها اللغوية و الحضارية وحولها إلى روافد ضمن منظومته الإسلامية المتميزة دونما إكراه، انطلاقا من الإيمان بالطابع الإنساني لتلك الأنساق و قابليتها للتلاؤم مع القيم الإسلامية، و لهذا لم يكن عجبا أن صارت اللغة الفارسية القديمة لغة إسلامية تلاقحت حتى آخر الحدود مع أختها العربية، في الخط و المعجم و التركيب.. إلخ. و كذلك حدث للغات و لهجات إسلامية أخرى، و لأعراف و تقاليد كثيرة.

إلا أن الراصد لطبيعة الفتح في منطقة " الغرب الإسلامي " يقف على كثير من عناصر التميز الذي طبع هذا الفتح، و من ذلك ميل الإنسان المغربي للانصهار الكامل في المشروع الحضاري التحرري الذي جاء به الفتح، بعد

مرحلة من المقاومة و التمنع المنسجم مع الطبيعة الأبية لهذا الإنسان، ولتنفتح بعد ذلك أبواب المغرب على مصراعيها لحالة فريدة من التلاقح و الاندماج بين العنصرين المغربي و الأمازيغي، و بين اللغة العربية و اللهجات الأمازيغية القديمة، دون إحساس بنزعة عرقية ضيقة، بل لقد تبنى الإنسان الأمازيغي تعاليم الإسلام بشكل مبدئي معتبرا أن آصرة العقيدة تعلو على باقي الأواصر العرقية و اللغوية، و أن الذي يحدد هوية الإنسان هو ما وقَر في قلبه و عقله من دين وليس ما عبر به اللسان.

البعد البشري:

الإنسان ركيزة المجتمع ومنطلق الحضارة و هو المخلوق الذي كرمه الله عز وجل و فضله على باقي الكائنات، و تحمل أمانة الاستخلاف في الأرض.

و الإنسان، بإرادته و طبعه، يملك أن ينشئ الحضارة، كما يملك، بإرادته و طبعه أيضا أن يحطمها. و من آيات الله أن جعل هذا الإنسان، بقدر توحده في الجوهر والمصدر " كلكم من آدم و آدم من تراب "، متعددا ومختلفا في لونه وطبعه و لسانه واعتقاداته و مشاعره و طرائقه.. إلخ.

و إذا كان ميلاد الحضارة ينبثق مع ميلاد إنسان جديد، بخصائص متميزة وأفكار و حماس جديد، فإن الإنسان المغربي شهد، في الحقيقة، ميلاده التاريخي و الحضاري بالمعنى القيمي مع مجيء الإسلام و حلوله بأرضه، تماما كما حصل للإنسان العربي في المشرق حينما أخرجه الإسلام من ظلمات الجاهلية إلى نوره.

لقد كان الإنسان صغيرا هناك في الجزيرة العربية، و لكنه كبُر بكبر الرسالة الإسلامية التي عانقها، و بنى على أساسها كيانا حضاريا مترامي

الأطراف. و نفس الشيء حدث للإنسان المغربي حينما اكتشف فجأة تعاليم الدين الجديد، و راح يشرئب، من خلالها، بعنقه ليلامس سقف الحضارة و التمدن ثم كان له ذلك.

و إننا إذ نتحدث عن " الإنسان المغربي " إنما نشير إلى صنف بشري محدد، تميزه خصائص، و يلتقي في أخرى مع كثير من البشر الآخرين. و الخصائص المميزة هي سمات مكتسبة ساهم الإسلام والتاريخ و البيئة في صياغتها.

و " الإنسان المغربي " هو حصيلة أجناس بشرية تجتمع كلها عند تلك القواسم المشتركة التي صهرتها قرون من الامتزاج و التساكن، وإذ اجاز التحديد العرقي، على نسبيته في هذا المجال، يمكن القول: إن هذا الإنسان تجري فيه دماء و أعراق محددة هي: العرق الأمازيغي القديم، الذي اختلف الباحثون في رده إلى أصول مفترضة، هل هي عربية أم غيرها؟. ثم العرق العربي، و العرق الزنجي الإفريقي ، و العرق الأندلسي المتميز أيضا..

جميع هذه الأجناس تقف على أرضية عقدية تاريخية و بيئية موحدة ، و قد زادها الامتزاج التاريخي الطويل تلاحما بحيث يصعب، إن لم نقل يستحيل ، راهنا فرز هذه الأعراق عن بعضها البعض أو تمييز الأصل العربي عن الأصل الأمازيغي أو الزنجي أو الأندلسي- ، و لا يمكن الاعتماد في ذلك على الاختلاف اللهجي من منطقة إلى أخرى، لاعتبار أن اللسان المغربي نفسه شهد تحولات كبرى ما بين مناطق تعربت و أخرى تحولت إلى اللسان الأمازيغي، و هكذا. . .

البعد البيئي:

نستعمل هنا مفهوم البيئة بمعناه الشامل، و نقصد الحيز الجغرافي (المكان) الذي يؤطر الجماعة البشرية خلال زمان معين، و البيئة بهذا المعنى تنفتح على دلالات الأرض والوطن الذي يستوطنه شعب من الشعوب و يعتبره ملكه الخاص. و بهذا تكون البيئة عنصرا لصيقا بمفهوم الهوية.

و إذا كان الإنسان يرتبط فطريا بقناعاته الدينية و المبدئية ، و قد يصل تقديره للغته حد التقديس ، و قد يُبجل عرقه إلى درجة الشوفينية ، فإن الحيز الجغرافي و البيئي الذي يتواجد فيه لا يقل أهمية بالنسبة لكثير من الجماعات البشرية . بل إن كثيرا من الصراعات الكبرى في تاريخ الإنسان ما كانت إلا بفعل التنازع على هذا الجزء من الأرض أو ذاك ، و هذه الحدود أو تلك .

و معلوم أن للمكان الذاتي أهمية خاصة عند كائنات الطبيعة بله الإنسان ، و أن هذا الارتباط يزداد ترسخا حينما يكون المكان وطنا عند الجماعة البشرية ، أي جزء لا يتجزأ من هويتها .

هذا من جهة ، و من جهة أخرى ، تكتسب البيئة أهميتها ((بتعددها و تنوعها و بما تفرزه من أوضاع اقتصادية و نظم اجتماعية و أنماط سلوكية ، و بما يترتب عن ذلك كله من ذهنية محددة))[١٨] إذ الأكيد أن البيئة تساهم بشكل كبير في وشم الإنسان بخصائص معينة ، و تؤثر في سلوكه و ذوقه و حماسه و أدبه و عمرانه ، إلى درجة يصح معها القول : إن الإنسان ابن بيئته .

إذا كان هذا هو شأن البيئة بصفة عامة ، فإن المغرب ، باعتباره وطنا وجزءا من البيئة ، يستمد هويته و تميزه أيضا من مناخه و أرضه وموقعه الجغرافي ، و كل المعطيات البيئية التي تطبع المجتمع و الأفراد بطابعها الخاص ، و تجعلهم حلقة من حلقات السلسلة البشرية الواحدة .

[١٨] – " الثقافة من الهوية إلى الحوار " . د . عباس الجراري . ص : ١٣ .

البعد التاريخي:

ثم إذا كان المكان يتحول إلى عنصر هام من عناصر الهوية عندما يشغله الإنسان، و يأخذ من ثم قيمته، فإن الزمان أيضا، يظل حيزا مجردا سائبا، لكنه يكتسب الأهمية نفسها حينما يرتبط بالتجربة البشرية، و حينما يتحول إلى ذاكرة لشعب من الشعوب؛ أي في النهاية حينما يصير تاريخا و تراثا .

و كما تتحدد الجماعة البشرية بزمنها الحاضر، تتحدد أيضا و بنفس القوة، بالزمن الماضي و الزمن الآتي . و كما لا يمكن أن نتصور أمة بدون حاضر، لا يمكن الحديث عن شعب بدون ماض أو مستقبل . هكذا يبدو أن البشر يقتطعون الأزمنة من زمانها المجرد كما يقتطعون الأمكنة لبناء الذوات و صيانة الهوية حتى لا تكون فريسة لامتداد مساحات الفراغ في دائرة المكان أو في دائرة الزمان على حد سواء .

و الملاحظ أنه مثل ما يُقسم الحيز المكاني إلى تضاريس و مدن، يقسم الزمان إلى حاضر و ماض و مستقبل . و تلك آية من آيات الله الذي خلق الليل والنهار، و جعل الزمان قابلا لأن يتحول إلى تاريخ يتشكل بحركة الإنسان و إرادته .

و لقد سبقت الإشارة حين حديثنا عن البعد البشري في الهوية الحضارية إلى أن الإنسان المغربي شهد ميلاده التاريخي و الحضاري مع مجيء الفتح الإسلامي، و حتما إننا لا نقصد الميلاد التاريخي بمعناه الوجودي (الأنطولوجي)، و لكن نعني دخول المغرب في تاريخ حضاري جديد ومتميز، و إلا فإن العرب أنفسهم يمتلكون امتدادا طويلا في الزمان، و لكنه زمان تم

تصنيفه في "العصر الجاهلي"، بالنظر إلى طبيعة المنطلقات الوثنية التي كان يستند إليها الإنسان العربي و ما انبنى عليه من أنماط منحرفة في الممارسة و التفكير و العلاقات.

و إن التاريخ إن جاز التمثيل، هو بمثابة المرآة التي تقرأ فيها الشعوب سيرتها، و تتحسس من خلالها ملامحها، و هو سجل ضخم يحفظ للذات ما اجترحته طيلة قرون من زمانها، و لذا فإن التاريخ يكتسي أهميته الخاصة ليس باعتباره شيئا مضى و انقضى. ولكن لما يمكن أن يمثله في حاضر الأمة و لمستقبلها، أي باعتباره ذاكرة حية مليئة بالعبر و الدروس والمآثر.

إلا أن المنهج المتخلف المرتبط بعقل " إنسان ما بعد الموحدين " ـــ حسب تعبير المفكر مالك بن نبي ـــ قليلا ما يتقن عملية الاستفادة من تاريخه على عادة هذا الإنسان في عدم استفادته من طاقاته و خبراته و قيمه.. إلخ. فالملاحظ أنه إما أن يقوم بتحويل هذا التاريخ، و ما فيه من تراث، إلى حِرز قديم يحفظه في الرفوف كما يحفظ الدهقان ياقوتة ثمينة في كيسه، و يكتفي بتمجيد الماضي و التغني به، و إما أن يعمد إلى قراءة هذا التاريخ انطلاقا مما كتبه عنه الآخر (الغرب الاستشراقي)، فينظر إليه نظرة ايديولوجية غربية محملة بمشاعر الاحتقار و الإحساس بالانسحاق و الدونية في اتجاه الذات و تاريخها.

إذا كان هذا يخص التاريخ البشري، على إطلاقيته، فإن تاريخ المغرب هو أيضا بحر شاسع عظيم، مليء بالعبر و الدروس، وهو ذاكرة الشعب، وفيه تراثه الضخم الذي يحمل أمجاده و رموزه الحضارية و التاريخية، و هو في النهاية بعد من أبعاد الهوية الحضارية ومن ركائزها، و حتما إن المقصود من " التراث " المتضمن في سجل التاريخ المغربي إنما هو بالتحديد ذلك " النوع

الإيجابي الفعال الذي يملك من المذاق و من الحرارة العقدية و المذهبية و اللغوية ما يستطيع به أن يضفي على هويتنا تلكم الحرارة "[19] كما يقول د. حسن الوراكلي.

[19] – "الغزو الثقافي و أزمة الهوية المغربية" د . حسن الوراكلي ضمن " الهوية الثقافية للمغرب " الملتقى الأول لندوة علال الفاسي ص : ٦٥



الفصل الثاني:

الهوية و سياق التحدي الحضاري

لا يمكن فصل سيرورة موضوع الهوية الحضارية للأمة عن سياق مجمل التحولات التاريخية الكبرى التي شهدتها الأمة العربية الإسلامية، و كانت مسرحا لها، و التي ينتصب في مقدمتها الاصطدام الكبير بالغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر؛ فإذا كان هذا الأخير قد اتصل بالشرق الإسلامي " اتصال اعتداء مسلح طوال قرنين كاملين من الزمن، من نهاية القرن الحادي عشر إلى آخر القرن الثالث عشر الميلادي، هو اعتداء الصليبية، و اختبر في هذا الاحتكاك: عقيدة الإسلام في قوتها، و ضعف المسلمين في مجتمعهم، و سعة ما يملكون من ثروة في بلادهم." [٢٠]. فإن الاجتياح الغربي مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان إعلانا عن الدخول في مرحلة دقيقة ضمن مسلسل الصراع الحضاري الطويل و العنيف فيما بين الأمة الإسلامية و الغرب في صيغته الاستعمارية.

و قد جاء الاجتياح ليجسد الاختلال الكبير في ميزان القوة بين الطرفين لصالح الغرب في فترة زمنية تميزت بوصول هذا الأخير أوج التعالي و العنفوان الحضاري فيما كانت الأمة 'الذات' قد استكملت دورة كاملة من الارتكاس و الهوان.

[٢٠] – " الفكر الإسلامي الحديث و صلته بالاستعمار الغربي " د. محمد البهي ص: ١٩

هكذا كان الاستعمار الغربي لبلاد الإسلام ، و ضمنها المغرب ، اصطداما جديدا فيما بين بنيتين الأولى هي بنيـة الذات في حالـة الهزيمـة ،والثانيـة هي بنية الغرب في حالة من الامتداد الكبير لنسقه المستعمِر.

بنية الذات المهزومة: (القابلية للاستعمار)

يتحدد مفهوم "الذات" بمعناها الحضاري من خلال تكامل مجموعة من المكونات الثقافية و التاريخية و البشرية و تعاضدها ضمن حيز جغرافي محـدد و على قاعدة منطلقات عقدية و لغوية تعطي لتلك المكونات صياغة مبدئيـة تـتراوح مـا بـين الاسـتقرار و التجـدد ، و تضـفي على الأمـة القـدر الثابـت و الجوهري و المشترك من السمات والخصائص بحيـث تتمـيز عـن بـاقي الأمـم و الحضارات و تجعل لنفسها هوية خاصة .

و يهمنا هنا في الذات الجمعية التي نتحدث عنها، مـا آلـت إليـه خـلال المرحلة التي تؤرخ للاصطدام بالغرب في العصر الحديث؛ حيث بلغـت الحالـة القصوى من التردي و الانهيار الذي امتد عميقـا في الزمـان، و نـاء بكلكلـه بأن شمل كل المستويات و البنيات الحيوية في الأمة.

هكذا ما أن جاء الغرب يطرق بعنف أبواب هذه الذات حـتى كانـت قـد وصلت حدا مـن السـقوط و التقـادم، و بعـد أن ((بلغـت عوامـل التعـارض الداخلية قمتها، و انتهت إلى وعدها المحتوم، و هو تمزق عالم واهـن، و ظهـور مجتمع جديد ذي معالم و خصائص و اتجاهات جديدة، فكانـت تلـك مرحلـة الانحطاط، إذ لم يعد الإنسان والتراب و الوقت عوامـل حضـارة، بـل أضـحت عناصر خامدة ليس لها فيما بينهـا صـلة مبدعـة)) ٢١. و بكلمـة أصـبحت

٢١ – " وجهة العالم الإسلامي " مالك بن نبي – ترجمة عبد الصبور شاهين . ص : ٢٧ .



الأمة جسدا تمزقه تجاعيد الشيخوخة الحضارية بعد أن دخلت بالقوة و بالفعل " مرحلة ما بعد الموحدين " بتعبير مالك بن نبي، و تحولت بهذا الدخول بقعة متهدمة هجرتها الحضارة، و توقف فيها الإشعاع الذي كان من قبل، و معلوم أنه((أينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، إذ يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم و إرادته للعمل عندما يفقد الهمة و قوة الإيمان.)) [22].

و حتما إن سقوط الإنسان في المرحلة المذكورة يؤدي بطريقة مباشرة إلى سقوط الحضارة و لذلك ((إلى جانب ما اتصف به إنسان ما بعد الموحدين من ' ذَرية ' و تزمّت و نزوح إلى المديح، لم تستطع التخلص منه عقول المصلحين، إلى جانب هذا كله تقف عيوب ذات طابع جماعي، كالجدل و الحَرفية و التشبث بأذيال الماضي و التحليق في الخيال، و هي ما يطبع ثقافة ما بعد الموحدين))[23] و تراجعت نتيجة هذه الأمراض دينامية الإبداع بشكل شبه كامل، و تحولت المؤسسات الثقافية و الاجتماعية والاقتصادية إلى هياكل فارغة، عاطلة و مهترئة، تعيد إنتاج الواقع المتخلف و تعمل على استمراره.

بل إن المبدأ الإسلامي الذي مثل فيما قبل منطلق البعث تمّ تمثّله في البنية المتخلفة بشكل مغاير تماما و أفرغ من مضامينه إفراغا تاما حتى يلائم العقل المتخلف و النفوس المهزومة الميالة إلى التقاعس و الخمول، في حين لا تتفجر حيوية هذا المبدأ إلا في دائرة تستبطن حدا معينا من الحرارة والجدية و هو الحد الذي غاب في المرحلة المرصودة على المستوى الاجتماعي و الحضاري وتراجع إلى دوائر ضيقة فردية تبْرق من بعيد و لا تنير شيئا.

و إذا كان هذا المبدأ الإسلامي هو نقطة القوة المركزية في النمط المجتمعي الإسلامي كله فإن ((نقطة الضعف المركزية في هذا النمط، تتجلى في

---

[22] – نفسه . ص : ٢٧

[23] – نفسه ص . ص : ٥٠ .

أن اختلال الإيمان يؤدي إلى اختلال في العدل والحق و الوحدة..)) ٢٤و ينتهي الأمر بالمنظومة الحضارية كلها في النهاية إلى التحلل الشامل و الاهتزاز الذي يشمل كل البنيات و المستويات.

و لعل أخطر شيء انفتح عليه الوضع المتخلف يتمثل فيما أصبح عليه من " قابلية للاستعمار " و ما صار يعتمل في أحشائه من أفكار ميتة، جاءت إفرازا طبيعيا لتفاعل البنية المتخلفة، حيث من الأكيد أن هذه الأفكار " لم ترَ النور في باريس، و لندن، و على مدرجات السوربون، أو أكسفورد؛ و لكن في فاس، والجزائر، وتونس، والقاهرة. لقد وُلدَت في ظل مآذن القيروان و الزيتونة و الأزهر خلال قرون ما بعد الموحدين " ٢٥ و هذه الأفكار هي التي ساهمت بشكل كبير في خلق "قابلية للاستعمار"، كما هيأت المجال واسعا لاستقدام الأفكار المُميتة ٢٦ و استنباتها في المدار الأهلي.

تلك باختصار شديد هي الصورة التي كانت عليها بنية الذات قبيل الاجتياح الغربي الكامل لمجالها، لقد كانت هذه البنية كما يقول د. حسن الوراكلي " من التردي و الانهيار و التخاذل بحيث غدت أغلب بلاد المسلمين، إن لم نقل كلها، مطمع أمم الغرب التي سرعان ما تداعت عليها كما تداعى الأكلة على قصعتها.)) ٢٧و لهذا كان من الطبيعي أن لا "يتمكن الاجتماع الإسلامي في سياق مواجهته للمعطى الوافد، من الحفاظ على استقلاليته التاريخية و صيانة مؤسساته و جماعاته و بالتالي جعل المعطى الوافد خارج حدود المدار الثقافي و السياسي و الاقتصادي للأمة الإسلامية " ٢٨.

---

[٢٤] – " الإسلام في معركة الحضارة " منير شفيق ص : ٨١ – ٨٢

[٢٥] – " مشكلات الحضارة : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي " – مالك بن نبي – ترجمة د . بسام بركة ، د . أحمد شعبو . ص : ٤٨ .

[٢٦] – القابلية للاستعمار ، الأفكار الميتة ، الأفكار المميتة .. مفاهيم يستعملها مالك بن نبي لوصف وضع التخلف الذي عاشته و تعيشه الأمة

[٢٧] – " الإسلام و الغرب : محاور التحدي و شروط المواجهة " د . حسن الوراكلي ص : ١٩

[٢٨] – –" في الاجتماع الإسلامي المعاصر – مسائل وموضوعات " د . حسن الضيقة ص : ٢٥ .



بنية الغرب: امتدادات النسق المستعمِر

إذا كان مفهوم " الغرب " في الاصطلاح الجغرافي، نسبيا و متحركا، فإنه في الاصطلاح السياسي الراهن، كما يقول ذ. عابد الجابري، " متعدد يضم عدة دول وعدة قوميات "٢٩.

و كلمة " غرب " في المرجعية الأوربية غنية بالدلالة، فهي تشير إلى " أنا " تتنوع هويته بتنوع الأطراف التي يتخذها مقابلا له: شرق (أدنى أو أوسط أو أقصى)، أو معسكر شيوعي (سابقا) هذا بينما لا تحمل هذه الكلمة في المرجعية العربية غير معناها الجغرافي الذي يشير إلى جهة غروب الشمس. و هي لم تستعمل في العربية بنفس المضامين إلا في وقت متأخر نقلا عن هذه المرجعية. "٣٠.

وحتما إن البعد السياسي ليس سوى تمظهرا للعمق التأسيسي في بنية الغرب و المتمثل في جذره الحضاري و الثقافي و الديني الذي ترسخ لعقود من الزمن، و ساهمت العديد من العوامل المتداخلة في تكوّنه، من هنا فنحن نتناول مفهوم "الغرب " هنا باعتباره " تصورا أفرزته ثقافة ذات خصائص مميزة، و بلورته حضارة ذات خصائص مميزة، هي الأخرى "٣١ .

إرساء النموذج:

٢٩ – " الغرب و الإسلام – الأنا والآخر . . أو مسألة الغيرية " ذ . محمد عابد الجابري – ضمن مجلة – فكر ونقد – السنة الأولى ع ٢ أكتوبر ١٩٩٧ ص : ٧

٣٠ – نفسه ص : ١٠ .

٣١ – " الإسلام والغرب . . " حسن الوراكلي ص : ١٥

لقد كانت الحروب الصليبية محطة حاسمة في سيرورة إرساء الملامح الأولية للنموذج الحضاري الغربي الحديث، حيث استطاعت القوى المتنفذة في المجتمع الإقطاعي الغربي خلال المرحلة الممتدة ما بين القرنين الحادي عشر و الخامس عشر، أن تنجز مشروعا عقائديا و سياسيا مركزيا، أعطى للغرب هوية متماسكة، فصارت الكنيسة، بما كانت تملكه من قوة رمزية و إمكانات اقتصادية و سياسية هائلة، تلعب دورا طلائعيا في احتواء التناقضات الاجتماعية بين مختلف الطاقات و توحيدها ضمن نسق واحد، بحيث تتجه جميعها نحو هدف واحد، هو تحقيق السيطرة الخارجية و استكمال مشروع المواجهة الحضارية ضد الخصم التاريخي المتمثل في الأمة الإسلامية خاصة.

و بدأت هذه الملامح تترسم أكثر و تتعزز مع حلول القرن السادس عشر؛ حيث عرفت أوربا في بداية هذه المرحلة ميلاد الدولة القومية (الملكية) و تجسدت من خلال حركة الوحدة الوطنية التي شملت مجموعة من الدول: توحيد فرنسا على يد لويس الحادي عشر – توحيد إنجلترا في ظل هنري السابع (١٤٨٥ – ١٥٠٩م) – توحيد إسبانيا عام ١٤٦٩ م ... و قد ترسخت فكرة الدولة القومية مستندة إلى التنظيرات السياسية التي كان يسهر على إنجازها كثير من الفلاسفة و المفكرين، كما هو شأن " ميكيافيلي " في إيطاليا، و " بودان " في فرنسا، و" هوبز " في إنجلترا ... كما تزامنت هذه الدينامية الداخلية الناهضة في الغرب مع حركة جامحة في اتجاه الخارج من خلال عمليات "الاكتشافات الجغرافية "، فتم قطع رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ م، و دخل " فاسكو دي غاما " الهند سنة ١٤٨٩ م، كما اكتشف " كولومبو " أمريكا سنة ١٤٩٢ م.

و هكذا استمرت هذه الدينامية في الامتداد، و ما أن جاء القرن السابع عشر حتى كانت أوربا قد دخلت عمليا زمن الحداثة على طريقتها. و هي حداثة قامت على " ثلاث عمليات قطيعة و تخفيض مجحفة: القطيعة الديكارتية بين المادة والوعي، و هو ما جعل العالم الخارجي نوعا من الكتلة المادية المتجانسة والميكانيكية في مقابل الإنسان الذي تحول إلى وعي عقلي طارد و ناف و مُقص، ثم القطيعة داخل المادة بين الاقتصادي من جهة و السياسي و الثقافي و الاجتماعي من جهة ثانية و تحويل الاقتصاد إلى نوع من لاهوت " الميكانيك " التاريخي، و إرجاع الحياة الإنسانية إلى حتمية واحدة هي الحتمية الاقتصادية، ثم أخيرا تحطيم الوعي و شقّه إلى وعي عقلي و لاوعي، و تحكيم اللاوعي في الوعي، و بالتالي إعطاء الأولوية في التفسير والتأويل التاريخي إلى المكبوت و غير العقلاني"[٣٢] بتعبير د. برهان غليون.

وطبعا مهما أبدينا من أحكام قيمية في المسار التاريخي للنموذج الغربي، يظل هذا النموذج متمثلا لمنطق داخلي خاص به، و تظل مجمل مكوناته، متظافرة، تشكل بنية متجانسة رغم الاختلاف الظاهري الذي يطبع هذا النموذج في كثير من مستوياته.

و استنادا إلى المعطيات السالفة سنلاحظ أن المجتمع الغربي سيتجاوز في حداثته، كل فلسفة متعالية و سيستند إلى المنطلقات المادية بعد أن عجزت الكنيسة، فيما بعد، عن استيعاب المتغيرات الاجتماعية والذهنية و الحضارية و مواكبتها، بل حاولت أن تقف سدا منيعا في وجه هذه التحولات الكبرى خوفا على مصالحها الاقتصادية و الاجتماعية و الرمزية، إلا أن دينامية الغرب الجديد كانت أقوى من المحاولة الكنسية، فتم ' تفصيل ' نصرانية على قياس

[٣٢] – " الإسلام و التحدي الحضاري " د . برهان غليون ضمن مجلة – رسالة الجهاد – ع ٧٦ السنة الثامنة – أبريل ٨٩ .

الإنسان الغربي و طموحه؛ فصار البعد الديني والحضاري لأوربا مزيجا غريبا من الإغريقية و الرومانية و النصرانية (الأوربية)، و بعد مجيء البروتستانتية أضفت على هذا المزيج بعدا توراتيا، سيمهد فيما بعد، كما نعلم، للتحالف فيما بين المسيحية واليهودية العالمية.

و من جانب آخر صارت " الوضعية " الفلسفة المهيمنة و جعلت المجتمع المدني الغربي بذلك مستقلا بقوانينه و آلياته عن المجتمع الديني، فأرسى الغرب بالنتيجة المنطلقات المركزية لنمط حضاري ينزع بقوة إلى ردم كل علاقة بين السياسة و القداسة، و راح يستنبط قيما أخلاقية جديدة متحررة من الضوابط الدينية السامية و لصالح " عقلانية متطرفة "، بحيث، كما يقول " إدغارد موران ": " أصبح العقل هو الأسطورة الكبرى الموحدة للمعرفة، و للأخلاق و للسياسة يجب على المرء في هذا المنظور أن يحيا تبعا للعقل، أي أن يبعد نداءات الوجدان، و الاعتقاد. و من حيث أن مفهوم العقل يتضمن مبدأ الاقتصاد، فإن الحياة وفقا للعقل ستكون موافقة للمبادئ النفعية للاقتصاد البرجوازي "[٣٣]

و هذه النزعة العقلانية التي يسميها " هوسرل " ((عقلانية الأهرامات)) هي التي ستدعم مفاهيم عرقية عنصرية تؤدي حتما إلى((كراهية كل ما هو مخالف باعتباره دونيا؛ السكان "البدائيون " المتأخرون، المتخلفون، الذين لم يصلوا بعد إلى درجة كونهم " راشدين " و الذين ليسوا أهلا للانتماء إلى الإنسان العاقل ، و بالتالي فهم غير جديرين بالحرية و بالحقوق المدنية).))[٣٤].

---

[٣٣] – " من أجل عقل متفتح " إدغارد موران – ضمن تساؤلات الفكر المعاصر – ترجمة محمد سبيلا . ص : ١٠ .

[٣٤] – نفسه ص : ١١ .



أما فيما يتعلق بالمجال الاقتصادي فقد استطاع نمط الإنتاج الرأسمالي أن يهيمن على هذا الميدان الحيوي بعد تحطيم النمط القديم، و فتح انتصار العقيدة الليبرالية المجال واسعا لامتداد النمط الجديد.

هكذا أعطت جميع هذه التحولات الجذرية في النسق الغربي في المحصلة النهائية، صورة جديدة للغرب جعلته يختلف كليا عن غرب " القرون الوسطى "؛ غرب المسيحية و الانحطاط الذي كان قفرا من جذوة الحضارة و حرارتها في ذلك الزمان البعيد.

حركة الغرب في اتجاه الموضوع:

لا يمكن لأي نمط حضاري قائم أن يسقط من نظرته المحيط الخارجي باعتباره فضاء للتعامل و الأداء السياسي و الثقافي إلا إذا قرر هذا النمط أن ينسحب عن المشهد الحضاري العام، بل إن التوجه نحو التقوقع الذاتي يكون دليلا واضحا على الدخول في دورة الارتكاس الحضاري الشامل، تماما كما حصل للحضارة الإسلامية حينما خبت فيها شعلة الازدهار فانكفأت على ذاتها الآيلة للذبول، غير عابئة بما يشهده المحيط من حولها من تغيرات جذرية.

و عكس هذا الفعل ارتبطت نهضة الغرب الحديثة بالانفتاح الكلي على محيطه الخارجي انفتاحا دعمته بنيات محلية كانت تشهد حالة قصوى من الدينامية و التحفز، بل حكمته العديد من الدوافع الثقافية و السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية.. منها على المستوى الحضاري الرغبة في عدم التغافل عن سيرورة الصراع التقليدي بين الغرب و الاسلام في فترة القوة و

الهيمنة، و منها الضرورة الاقتصادية لنمط رأسمالي جشع يشرئب إلى المحيط في كل آن و حين، و منها غير ذلك..

و الملاحظ أن انفتاح الغرب على محيطه الخارجي تميز عبر التاريخ بخصائص محددة، أهمها: ممارسة العدوان على هذا المحيط و تدميره؛ حيث يؤكد هذا التاريخ أن النمو الذاتي للغرب كان يتم دائما عبر تحطيم المحيط و تدميره و نهبه، و أن انتظامه الداخلي كان يستلزم إحداث الاختلال في الخارج و هذا شيء " طبيعي " في وسط انببت فيه " الأنا " على السيطرة؛ "سيطرة الذات على ما تتخذه موضوعا لها، سواء كان هذا الموضوع أشياء الطبيعة أو أناسا آخرين "[٣٥]، كما يقول ذ. محمد عابد الجابري، و هو ' طبيعي ' أيضا لاعتبار أنه ((من خلال هذا التصور ل ' الأنا ' كمبدأ للسيطرة يتحدد موقع ' الآخر ' و دلالته ووظيفته في الفكر الأوربي، أي بوصفه موضوعا للسيطرة أو عدوا، أو بوصفه قنطرة تتعرف الذات من خلاله على نفسها.)) [٣٦].

لهذا، إذن، و((منذ القرن الخامس عشر بدأت الدول الأوربية الناشئة بتحطيم أبواب القارات بكل ما تملكه و تتميز به في تلك المرحلة من قوة تدمير نارية، لترسي كل منها حقل استعباد و سيطرة خارج حدودها متعددة الأوجه، عبر تدمير و تفكيك مراكز الحضارات العالمية المختلفة على مختلف مستوياتها، بدءا بقواها العسكرية و كياناتها السياسية، وصولا إلى دوراتها الاقتصادية و لحمتها الثقافية و العقائدية))[٣٧] ..

و استمر هذا الامتداد الطغياني للغرب مستندا إلى فلسفة " المصير المتعالي " ومنصبا نفسه محورا تاريخيا عالميا وحيدا في معالجة " مجتمعات ما

[٣٥] – "الغرب والإسلام : الأنا و الآخر . . أو مسألة الغيرية " . د . محمد عابد الجابري – ضمن مجلة ' فكر و نقد' ع ٢ . أكتوبر ٩٧ . ص : ١٦ .
[٣٦] – نفسه ص : ١٧
[٣٧] – " النظرية الاقتصادية : أو اللغة العقلانية لمنظومات التسلط الغربي " حسن الضيقة ضمن مجلة " الفكر العربي " ع : ١٢ . ص : ٣١٩



وراء البحار " مع الاعتماد على منظومات و مسلمات فكرية، ضمن من خلالها الغرب نوعا من الإجماع الداخلي على " رسالته التحضيرية "، و مع الامتداد في الزمان والمكان تعمقت في هذا النموذج نرجسيته الحادة وإحساسه العميق بعقدة التفوق و دونية الشعوب الأخرى، التي راح ينظر إليها كما لو كانت " زوائد عائمة " ما خلقت إلا من أجل خدمة هذا النموذج الحضاري المتغطرس. و هكذا تمت صياغة تراتبية عرقية خطيرة ترسم فروقات جوهرية بين الإنسان الأبيض و باقي البشر، و تبرر كل أصناف الإجرام في حق الآخرين.

على هذا الأساس انبنت علاقة الغرب العدوانية مع محيطه الخارجي لتصبح في نهاية الأمر غزوا حضاريا شرسا و عميق الفاعلية، يمارس عبر مجموعة من الآليات و المؤسسات المنظمة أحسن تنظيم؛ حيث ستتآزر الدولة الدستورية المتينة مع العلم والدين و الصناعة و الثقافة و الجيش لتقسيم المهام وتوزيع الأدوار، خدمة لهدف واحد هو إخضاع المحيط الخارجي بكل الوسائل حتى يهيمن النموذج الغربي. و بذلك لم يعد الغزو مغامرات بدائية تقوم على النهب اللاعقلاني من قبل القراصنة، بل سيصبح غزوا تشرف عليه الإدارة المنظمة و المؤسسات المتينة، و يتراوح فعله مابين إبادة أهالي البلاد المقتحمة، كما حصل لهنود أمريكا، والاستعباد الذي يصل إلى حد التصفية كما حدث للأفارقة و الآسيويين، و ما بين الاستعمار من جانب آخر، كما سيحدث فيما بعد لمعظم بلاد الإسلام.

و هنا يقف الباحث مندهشا أمام الجرائم الكبرى التي ارتكبها هذا النمط في حق البشرية، و في حق الشعوب المستضعفة على الخصوص، بحيث يحق القول مع ذ. منير شفيق: ((إذا رسمنا خريطة للعالم في تلك المرحلة المسماة " عصر النهضة " فسنجد أن العالم دخل، في الواقع الفعلي، في عصر

الظلمات و الإجرام و ارتكاب كل أشكال الموبقات لا على مستوى هذه الإقطاعية أو تلك في إنجلترا و فرنسا أو إيطاليا أو هولندا، و إنما على مستوى قارات بأكملها، و مستوى شعوب بأسرها، أو قل على مستوى قطاع واسع من العالم يفوق أوروبة سكانا و مكانا عشرات الأضعاف)) ٣٨

هذا الكلام في حقيقته لا يتضمن أية مبالغة، ذلك لأن هذا العصر الذهبي(النهضة) الذي شيده الغرب إنما كان على حساب نهب المحيط الخارجي و تدميره؛ فمعلوم أن سعي هذا النمط الجنوني نحو استعباد الأفارقة و إقحام عشرات الملايين منهم في سوق النخاسة العالمية إنما رافقه أكثر من مائة مليون ضحية ما بين مستعبد و قتيل، كما أن التوغل في الأمريكتين إنما كان على أشلاء الملايين من الهنود الحمر.. هكذا واللائحة تطول و تطول..

و لهذا أيضا لم يبالغ الذين قالوا: إن الغرب، في وجهه الاستعماري، هو اختلال في تاريخ الإنسان، و قد تأسس هذا الاختلال منذ البدء حينما بنى كيانه على منطلقات عرقية ضيقة تقدس الإنسان الأبيض، و حينما تحول الخطاب العرقي الاستعماري مع " شامبرلان " إلى دين جديد و أيديولوجيا تبرر الفتك بكل الشعوب التي لا تنتمي إلى العرق الأوربي الأبيض، و هذا الخطاب نفسه هو الذي تحول فيما بعد على أيدي علماء الإناسة الألمان و فلاسفتهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين إلى ترسانة أيديولوجية خطيرة، تنبني على مبادئ البقاء للأقوى و سيطرة البشر على بعضهم البعض، وكانت النتيجة أن ظهرت أنظمة سياسية دموية و استعمارية من قبل النازية و الفاشية و الصهيونية العالمية فيما بعد.

[38] – " الإسلام في معركة الحضارة " ذ . منير شفيق ص ك ١٧



غزو العالم الإسلامي:

إذا كانت تلك هي طبيعة العلاقة التي ربطها الغرب بالشعوب و الأنماط الحضارية الأخرى، فإنه كان أكثر شراسة و دموية في غزوه للعالم الإسلامي، و يمكن التمييز في هذا الغزو بين مراحل ثلاث خضعت لها كل بلدان العالم الإسلامي و في مقدمتها المغرب.

المرحلة الأولى:

و هي المتمثلة فيما قبل احتلال العالم الإسلامي، و كانت فترة تمهيدية إعدادية، شهدت العديد من التحرشات و المؤامرات الخارجية، و لعب فيها التبشير و التجسس دورا مركزيا، بل إن علوما بأكملها قامت من أجل فهم عميق لبلاد الإسلام، و تمثلت في الاستشراق و علم الإناسة (الأنتروبولوجيا) و البيولوجيا.. و جميعها وظفت بشكل ذكي و سافر من أجل إعداد الغزو ماديا و تبريره فلسفيا و بيولوجيا حتى يلقى القبول الكامل عند الإنسان الغربي، هكذا إذا كان الاستعمار الفرنسي قد حل بالمغرب رسميا سنة ١٩١٢ فإنه بدأ عمليا ((يثبت أقدامه قبل سنين من هذا التاريخ، اقتصاديا و عن طريق اغتصاب أطراف المغرب شرقا. وقبل هذه المرحلة بوقت طويل، قام الفرنسيون بمسح شامل لأهم ما يخص المغرب، انطلاقا من تضاريسه و طبيعة أرضه ومناخه و مجتمعاته و لهجاته، إلى جذوره التاريخية وواقعه الحضاري و السياسي. ووجه أساتذة الجامعة بباريس طلبتهم قبل إقرار الحماية على المغرب

إلى دراسة قضايا المغرب القانونية ليهيئ السياسيون ملفا متكاملا يسمح لفرنسا بوضع يدها على المغرب.)) ٣٩

المرحلة الثانية:

و هي مرحلة الاجتياح المباشر لبلاد الإسلام و التي حملت عنوان " الحماية " و خلالها قام المعمر بارتكاب كل الجرائم؛ بدءا بالقتل الجماعي و نهب خيرات البلدان المستعمرة و مصادرة الأراضي، إلا أن الأخطر من ذلك تمثل في السهر على وضع أسس لتبعية حضارية بغيضة، تجعل من الأمة كيانا تابعا للغرب و ملحقا به، لهذا " عندما اجتاح الغرب بقواته العسكرية بلادنا و جزأها و أحكم قبضته السياسية عليها راح يعمل على تحطيم كل مقوماتها الأساسية التي تشكل استقلالا عنه و بديلا له؛ فأقام مدارسه و كلياته التبشيرية و العلمانية وجامعاته الحديثة لكي يخرج جيشا من المثقفين الموالين له، ممن يسلخون عن ثقافة الإسلام و يتبعون ثقافة الغرب.. " [٤٠]

المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة ما بعد الجلاء الاستعماري عن البلدان العربية الإسلامية مع الاستمرار في الحضور عبر شبكات الهيمنة على مجالات حيوية شتى تضمن

[٣٩] – " الصراع بين هويتين ثقافيتين " د . إبراهيم حركات . ضمن " الهوية الثقافية للمغرب " ص : ٥٠

[٤٠] – " الإسلام في معركة الحضارة "ذ . منير شفيق . ص : ١٥٠ .

التبعية للغرب و الارتباط العضوي به، و تلعب النخب المتغربة دور الوسط الساهر على استمرار هذه التبعية و التمكين لها ثقافيا و سياسيا و اقتصاديا.

موقع الهوية الحضارية من الغزو:

إذا كان الغرب قد فكر في غزو العالم الإسلامي، و هو تحذوه الشراهة الجامحة لنهب خيرات هذا العالم، إلا أن البعد الحضاري، في حملته، كان دافعا مركزيا كذلك، حيث جاء الغرب إلى بلاد الإسلام محملا بكل الأحقاد التاريخية و الدينية التي تراكمت عنده لقرون جراء الاحتكاك بهذه البلاد. لهذا كانت الهوية الحضارية الإسلامية هدفا للغزو كذلك باعتبارها سرّ القوة التي انبنت عليها الأمجاد الإسلامية في الماضي، و كان طبيعيا أن يسعى الاستعمار بكل إمكاناته لتفكيك أبعاد هذه الهوية و إضعافها في الواقع و في النفوس. هكذا بدءا بالدين و مرورا باللغة و التراث و التاريخ وانتهاء بالقيم الأخلاقية في المجتمع، كان العدوان الغربي يطال كل هذه المستويات و يضربها في العمق بعنف و شراسة.

<u>فعلى المستوى الديني:</u>

عمل الغرب و منذ أمد يعود إلى الحروب الصليبية، على النيل من الإسلام، تارة بتشويه صورته، وتارة بتجنيد الحملات التبشيرية الواسعة ، و تارة باللجوء إلى "الاستشراق " من أجل الكتابة عن الإسلام بطريقة " علمية "، حينا، و مغرضة في أحيان كثيرة. و تارة أخرى، و هي الأخطر، بالسهر على تخريج أفواج من الشباب المتغرب و المتشبع بالتيارات الايديولوجية المناقضة للإسلام.

<u>أما على المستوى اللغوي:</u>

فقد كانت اللغة العربية هدفا مركزيا للعدوان كذلك؛ وهيأ الاستعمار في هذا الصدد" خطة متكاملة لهدم اللغة الوطنية، و بناء لغة أجنبية مكانها من منطلق التعالي و سلطة القهر، و لم تكن تكتفي بالهيمنة السياسية و العسكرية، و فرض لغتها بجانب اللغة الوطنية، إذ أنها كانت ترى في الازدواجية اللغوية أنها لا تتلاءم و منطق العصر."٤١.

و على المستوى البشري:

تجسد المكر الاستعماري في العمل الدؤوب لتفجير التوحد التاريخي الذي تميز به الإنسان المغربي ، بكل روافده الأمازيغية و العربية و الزنجية و الأندلسية. و كان" الظهير الاستعماري " (الظهير البربري) خطوة جريئة و خطيرة في هذا الصدد لولا أنها اصطدمت بمناعة عقدية قوية في قلب المجتمع.

و على مستوى التراث:

عمد مهندسو الغزو الاستعماري إلى تقديم قراءات مزيفة لتراث المسلمين وتاريخهم، ركزوا من خلالها على الجوانب السلبية في هذا التراث و نجحوا بذلك في تخريج أجيال من المتعلمين لا تكاد تنظر إلى تاريخها إلا من خلال ضباب كثيف من الشبهات و الأراجيف، مما ولد لدى هؤلاء إحساسا حادا بالانسحاق أمام هذا التاريخ و رموزه.

و بخصوص المستوى الجغرافي:

اجتهد الاستعمار الغربي في تمزيق البلاد الإسلامية وتقسيمها إلى دويلات ضعيفة، حرص على إغراقها في صراعات لا متناهية على الحدود. إلا أن أخطر ما أنجزه الغرب من إفساد في جغرافية بلاد الإسلام، تمثل في زرع

[41] – اللغة ومفهوم الازدواجية اللغوية في فكر علال الفاسي " ضمن " الهوية الثقافية للمغرب " ص : ١٨٣ .

الكيان الصهيوني بأرض فلسطين و السهر على رعايته بكل وسائل الدمار و العنف، مع الاستمرار في دعم كل بادرة للانفصال و التجزئة في باقي أراضي الوطن الإسلامي.

مواقع الاجابة عن سؤال الهوية:

يقول ذ. محمد عابد الجابري في معرض الحديث عن انبثاق الاهتمام بموضوع الهوية في المجال العربي الحديث و المعاصر:((في إطار التمدن/ المقاومة، كزوج يختزل مسألة النهضة، بدأ الوعي العربي يطرح مسألة الهوية.. و استمر طرح هذه المسألة يغتني و يتأثر بالتطورات و الأحداث التي تلاحقت و تعاقبت على البلاد العربية، من الحرب العالمية الأولى إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧ مرورا بشكل خاص، بهزيمة ١٩٤٨، و بالعدوان الثلاثي لعام ١٩٥٦. في هذا الإطار، و ضمن هذه الأحداث التاريخية الكبرى ظل السؤال التالي يتردد: من نكون؟ و ماذا نريد أن نكون؟ و بعبارة أخرى: ما هويتنا، سواء سلكنا هذه السبيل أم تلك في التنمية ؟))[٤٢].

و يرى الباحث نفسه أن سؤال الهوية كان ومازال " يطرح جملة أزواج أو ثنائيات على رأسها الأزواج التالية: الإسلام و العروبة، الدين و الدولة، الأصالة و المعاصرة، و الوحدة و التجزئة."[٤٣].

هكذا يمكن القول بالفعل إن موضوع الهوية هو السؤال الملتهب و المقلق الذي انبثق بقوة في المجال العربي و في مجال النخبة تحديدا غداة الصدمة الاستعمارية، و كان الهاجس المركزي الذي لازم الفكر العربي الإسلامي بطريقة أو بأخرى منذ البدايات الأولى لهذا الفكر في الزمن

---

[٤٢] – " المثقف العربي : دوره و علاقته بالسلطة و المجتمع " د . محمد عابد الجابري ص : ١٢٠ – ١٢١ .

[٤٣] – نفسه ص : ١٢١



الحديث، و استمر باستمراره. و لهذا جاز القول مع ذ. منير شفيق في هذا الصدد: " لا يشكل طرح السؤال الذي يتناول تحديد الهوية ترفا فكريا، أو لعبة فلسفية، أو حلا لأزمة نفسية، أو دخولا في أزمة نفسية. إنه في الواقع أمرجاد يتعلق بالصراع المصيري نفسه. بل يقرر الصراع المصيري نفسه، ومن ثم، يقرر هذا السؤال و ما سيقود إليه من إجابات معركة الصراع ضد الاستعمار و الصهيونية، و يحكمان معركة الاستقلال، و الوحدة، و الثورة، و يرسمان طريق معالجة مشاكل التنمية الروحية، و الاجتماعية، و الثقافية، و الاقتصادية. أي يشكلان عملا سياسيا و عسكريا و تنظيميا إلى جانب عملهما العقيدي و الفكري و النظري. "[٤٤].

إذا كان سؤال الهوية قد طرح بهذا المستوى من الأهمية و الحدة، فإن الإجابة عنه من قبل النخبة كانت حاسمة في صياغة ملامح المدارس و التيارات الفكرية و السياسية التي ظهرت على مسرح المجال العربي الإسلامي، و التي كانت تجد نفسها مطالبة في كل حين بتحديد موقف معين من مقومات الهوية الحضارية الإسلامية (الدين، اللغة، التراث، الأرض..) و كانت تجد نفسها من جانب آخر مطالبة بتحديد هويتها انطلاقا من الاختيارات التي يمليها التحديد السالف.

و قد خضعت هذه العملية بالطبع لمجمل المؤثرات الأيديولوجية التي استندت إليها هذه المدرسة أو تلك، سواء تعلق الأمر بالمدرسة الإسلامية أو اليسارية أو القومية أو العبثية.. إلخ.

و كان السياق الحضاري بكل ملابساته، سالفة الذكر، حاسما في توجيه تلك المؤثرات ، فلقد ((ظلت البنية الثقافية في معظم البلاد المتأخرة

[٤٤] – " الإسلام في معركة الحضارة " ذ . منير شفيق . ص : ١٢٣



بنية متجانسة و منسجمة و منغلقة على نفسها لعدة قرون إلى أن هبت عليها رياح الحداثة و فتحتها على مصراعيها أمام تأثيرات العصر مما ولد فيها ثنائية عميقة في كافة المستويات، و أحدث في الهوية الثقافية دينامية لم تعرفها من قبل.))٤٥.

و بهذا أصبح المجتمع الإسلامي الأهلي، في خضم التطورات الكبرى التي راحت تزلزل بنياته العتيقة، أمام تحديات مصيرية ، و لم يكن غريبا أن قوة الزلزال و الغزو الآتي من الغرب أسفرت عن انقسام النخبة إلى سيل كبير من التيارات و السبل التي تراوحت مواقفها من المقومات الحضارية الممثلة لهوية الأمة، مابين التبني التام والانسلاخ الكامل، و بتعبير أوضح، تراوحت مابين الخط الإسلامي الأصيل، المنطلق من الهوية الحضارية و العائد إليها، و بين الخط الدافع نحو التنكر لتلك المقومات و مهاجمتها، تمهيدا للانخراط الكامل في الدورة الحضارية الغربية المدعومة بكل وسائل الهيمنة والامتداد و يمكن القول بصيغة إجمالية: إن جميع هاتيك المواقف المتباينة تؤول مرجعيتاها إلى تيارين اثنين كبيرين، يستبطنان في طياتها العديد من الروافد و هما على التوالي: التيار الإسلامي و التيار العلماني.

التيار الإسلامي:

وهو عنوان كبير لسيل من الروافد الفكرية و السياسية و الدعوية التي تمتد على طول البلاد الإسلامية و عرضها. و بالرغم من مجمل الاختلافات القائمة فيما بين هذه الروافد، تلتقي معظمها عند قاسم مشترك، يتمثل في

٤٥ – "مدارات الحداثة "محمدسبيلا ص . ١١٤.



تبني الإسلام و الإيمان به منطلقا في الحياة و إطارا لها، و بناءا على ذلك يرى هذا التيار أن هوية الأمة تتحدد انطلاقا من الإسلام و مبادئه، و تأتي باقي العناصر العرقية و اللغوية و التراثية.. و غيرها لتكون بمثابة العناصر التكميلية لهذه الهوية، و لترتبط ارتباطا عضويا بالإسلام و تعاليمه دونما تضخيم لهذا البعد أو ذاك.

التيار العلماني:

و يضم في طياته بدوره كل المدارس الفكرية والسياسية التي تأخذ بهذه المرجعية الغربية أو تلك، سواء تعلق الأمر بالاشتراكية أو الماركسية أو الوجودية.. أو غيرها من الأيديولوجيات التي اقتحمت النسيج الأهلي المحلي مع الاجتياح الاستعماري للبلاد العربية الإسلامية.

و الملاحظ أن هذا التيار لا يحرص على استحضار سؤال الهوية في خطابه باعتباره قضية مركزية، كما هو الشأن عند الخط الإسلامي، و لكن قوة المفهوم فرضت عليه الانشغال به و البحث عن تقديم إجابات مقنعة لأسئلته المقلقة. و قد تراوحت مواقف مدارسه فيما بين التطرف و الاعتدال.

و إذا كانت عناصر الدين واللغة و التراث و الوطن.. تحضر عند التيار العلماني، بشكل أو بآخر باعتبارها مكونات الهوية الجماعية، إلا أن نظرته إلى هذه المكونات تختلف اختلافا واضحا عن النظرة الإسلامية السالفة الذكر؛ إذ الدين في النظرة العلمانية ليس هو الدين في إطاره الإسلامي، لا يتعلق الأمر هنا بمسألة التقديس، و لكن بعلاقة الدين مع الحياة و بمركزه فيها، ففيما يربط الإسلام ربطا واضحا بين تعاليمه والحياة في جميع مستوياتها السياسية

و الثقافيـة و الاجتماعيـة والأخلاقية و الاقتصادية.. يميل الخطاب العلماني بمختلف صيغه الايديولوجية إلى إسقاط الفهم الغربي للدين و الكنيسة على تعاليم الإسلام ، و يعمل على اختزالها إلى أقصى الدرجات الممكنة، بحيث يصير الدين مجرد علاقة للفرد بالرب، و مجرد سلوك لا يتجاوز جغرافية الأداء الخلقي عند الفرد. و بموازاة مع ذلك يستدعي هذا الخطاب عناصر أخرى لتأخذ مواقع الصدارة، و على رأسها البعد العرقي العروبي الذي تنبني عليه فكرة القومية العربية، و تتلاقح مع مجموعة من الروافد الايديولوجية المتراوحة مابين الماركسية و الليبرالية و الاشتراكية.. و على أساس هذا المنظور القومي العرقي، و استنادا إلى بعد من الأبعاد الأيديولوجية الوافدة مع الغزو الغربي تتحدد العلاقة بباقي مكونات الهوية من لغة و تاريخ ودين وتراث..

المصادر و المراجع

- الجرجاني (الشريف علي بن محمد) ، " كتاب التعريفات " دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٥
- م . روزنتال ، ب . يودين " الموسوعة الفلسفية " – ترجمة سمير كرم – دار الطليعة – بيروت ط ٦ – ١٩٨٧ .
- بن نبي (مالك)، " مشكلات الحضارة : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي " ترجمة د . بسام بركة ، د . أحمد شعبو – دار الفكر – دمشق ط ١ – ١٩٨٨ .
- بن نبي (مالك)، " وجهة العالم الإسلامي " ترجمة عبد الصبور شاهين – دار الفكر – بيروت .
- البهي(محمد)، " الفكر الإسلامي الحديث و صلته بالاستعمار الغربي " ، دار الفكر – بيروت ١٩٧٣ – ط ٦.
- الجراري(عباس)، " الثقافة : من الهوية إلى الحوار " – منشورات النادي الجراري (٣) – مطبعة المعارف الجديدة ط ١ – ١٩٩٣
- سبيلا (محمد)، " تساؤلات الفكر المعاصر " ، دار الأمان للنشر و التوزيع الرباط – ط ١ – ١٩٨٧ .
- سبيلا (محمد)، " مدارات الحداثة : مقالات في الفكر المعاصر " منشورات عكاظ – الرباط ١٩٨٨.
- شفيق(منير)، " الإسلام في معركة الحضارة " ، دار البراق للنشر – تونس – ط ١ – لبنان ١٩٩١.
- الضيقة(حسن)، " في الاجتماع الإسلامي المعاصر – مسائل و موضوعات " دار الإيمان – بيروت – ١٩٩٣
- العلوي القاسمي(هاشم)، " مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري " وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية – مطبعة فضالة / المحمدية ١٩٩٥ .
- غليون(برهان)، " مجتمع النخبة " – معهد الإنماء العربي – ط . ١ – بيروت ١٩٨٦
- الوراكلي (حسن)، " الإسلام والغرب : محاور التحدي و شروط المواجهة " مؤسسة التغليف و الطباعة و النشرو التوزيع للشمال – طنجة ١٩٨٧
- " الهوية الثقافية للمغرب " – الملتقى الأول لندوة علال الفاسي – كتاب العلم – السلسلة الجديدة – ط ١ – ١٩٨٨
- " المثقف العربي : دوره و علاقته بالسلطة و المجتمع " – المجلس القومي للثقافة العربية – سلسلة الندوات و المؤتمرات ١ – / وقائع حلقة الرباط الدراسية ٤ – ٥ مايو – أيار ١٩٨٥ . مطبعة المعارف الجديدة – الرباط .
- مجلة " فكر ونقد " ع ٢ – س ١ – أكتوبر ١٩٩٧ .
- مجلة " رسالة الجهاد " ع ٧٦ س ٨ – أبريل ١٩٨٩ .

- **A . P . Gurage : Identité culturelle et développement ,Tradition et modernité – inifda dossier – 68 Nov / dec 88 .**
- **C . L . Strauss : L' identité – Paris 87 .**
- **Jacqeline Russ : Dictionnaire de philosophie – La rousse Bordas 1996**
- **Lê thanh Khôi : culture créativité et developpement . E ditions l' harmattan 1992 Paris .**

د.مصطفى المسعودي

باحث وشاعر مغربي .

من مواليد مدينة الحسيمة بشمال المغرب سنة ١٩٦٣.

سليل أسرة عرفت بمقاومة قوية للاستعمار في صفوف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي .

تلقى التعليم الابتدائي والثانوي في مدن: فاس، الحسيمة وطنجة.

حصل على شهادة الإجازة في الأدب العربي سنة ١٩٨٥.

حصل على شهادة دبلوم الدراسات المعمقة في الأدب العربي بميزة حسن من جامعة محمد الخامس بالرباط سنة ١٩٨٧.

حصل على شهادة الدكتوراه في موضوع الشعر المغربي المعاصر بميزة مشرف جدا جامعة محمد الخامس بالرباط سنة ٢٠٠٣.

تخرج من المدرسة العليا للأساتذة بتطوان تخصص اللغة العربية سنة ١٩٩٠.

مارس التعليم الثانوي التأهيلي لمدة ٢٠ سنة.

ساهم المسعودي منذ الثمانينات من القرن الماضي في إثراء الساحة الثقافية والأدبية المغربية بحضور غني.

شغل منصب رئيس تحرير جريدة "الجسر" المغربية لأزيد من ١٠سنوات.

شارك في العديد من الملتقيات الأدبية الثقافية والسياسية.

ترأس وساهم في تأسيس العديد من الجمعيات والمنتديات الثقافية بالمغرب.

ونشر الكثير من الإبداع الأدبي والفكري في منابر إعلامية ومواقع الكترونية .

ــ من أعماله الأدبية:

"لقاء على أبواب قصر الماء "ــ ديوان شعر

"جرح الانتماء"ــ ديوان شعر

"أغاني عابر سبيل "ديوان شعر

"موضوع الهوية في الشعر المغربي المعاصر: مقاربة في علاقة الإبداع بالانتماء"
- نقد أدبي